الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

قائد الفصل

نحو بيئة مدرسية أكثر التزامًا

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY
unicef
UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization
GenEx
Generational Education Exchange
تمكين TAMKEEN
UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK
AMIEF

سبق وأنْ أفردنا الحديث في مقال سابق عن ظاهرة الغياب المدرسيّ، وذكرنا بأنّ هذه الظّاهرة تُمثّل تحدّيًا جوهريًّا يؤثّر سلبًا على المسيرة التّعليميّة للطّلبة، ويؤثّر في جودة مخرجات التّعليم بشكل عام، إذ يُفقِد تكرار الغياب الطّالبَ فرصًا ثمينة للتّعلّم والمشاركة الفاعلة في العمليّة التّربويّة.

وقد لاقى المقال السّابق تفاعلاً جميلاً من العديد من الجهات في الوطن العربيّ، ونحن كاتّحاد عربيّ للمدارس الخاصّة نتقدّم بخالص الشّكر والامتنان لكلّ من تفاعل معنا، سواء أكان من خلال إبداء الرّأي أو تقديم الأفكار والمبادرات أو طرح تصوّرات وحلول للحدّ من هذه الظّاهرة، إلاّ أنّ خصوصيّة الثّقافة في كلّ دولة عربيّة تجعل من الصّعب تطبيق حلّ واحد يناسب الدّول العربيّة بأجمعها، وهذا ما رصدناه من آراء وردت للاتّحاد حول هذا الموضوع.

ومن هذا المنطلق، تأتي مبادرة الاتّحاد العربيّ للمدارس الخاصّة تحت عنوان مبادرة "قائد الفصل الدّوريّ" كمحاولة لوضع النّقاط على الحروف لإيجاد حلول للتّصدّي لهذه الظّاهرة، وكنموذج تعليميّ مبتكر وفكرة يمكن أنْ تكون بوّابة نحو إصلاح تربويّ شامل.

وتعتمد هذه المبادرة على إشراك الطّلبة أنفسهم في حلّ هذه المعضلة عبر منحهم أدواراً قياديّة متناوبة داخل الفصل الدّراسيّ، ممّا يعزّز لديهم الشّعور بالمسؤوليّة ويحفزّهم على الالتزام بالحضور المنتظم، ولا تقتصر هذه المبادرة على تعيين طالب ليكون مراقباً للحضور، بل تتجاوز ذلك لتخلق ثقافة طلاّبيّة داعمة للانضباط الذّاتيّ والمسؤوليّة المشتركة.

وتكمن قوّة هذه المبادرة في قدرتها على تحويل مفهوم مكافحة الغياب من مهمّة إداريّة بحتة إلى مسؤوليّة جماعيّة يشارك فيها الطّلبة بفاعلية، إذ يمارس كلّ طالب دور القيادة لفترة محدّدة، فيكتسب مهارات تنظيميّة وقيماً سلوكيّة تتجاوز حدود الفصل الدّراسيّ.

كما تسهم المبادرة في تقوية العلاقات الاجتماعيّة بين الطّلبة وتعمل على تعزيز روح الفريق الواحد، ممّا ينعكس إيجاباً على البيئة التّعليميّة ويحفّز الطّلبة على الالتزام بالحضور والمشاركة الفاعلة، فقد أثبتت التّجارب التّربويّة أنّ إشراك الطّلبة في صناعة القرار وتحميلهم مسؤوليّة نجاح العمليّة التّعليميّة يزيد من دافعيّتهم نحو التّعلّم ويقلّل بشكل ملحوظ من نسب الغياب والتّسرّب المدرسيّ.

هذا وتقف فكرة "قائد الفصل الدوري" على تقاطع عميق بين مفاهيم السّلطة والتّعلّم والدّيمقراطيّة، فهي ليست مجرد إستراتيجيّة تعليميّة، بل هي رؤية فلسفيّة تعيد صياغة العلاقة بين المعلّم والطّالب، وتحوّل الفصل الدّراسيّ من هرميّة تقليديّة إلى مساحة تشاركيّة، فهي تستند في عمقها إلى جوانب عديدة، أوّلها كون طلب العلم فريضة إسلاميّة، وفيها تنمية للمسؤوليّة الذّاتيّة لدى الطّالب تجاه ذاته، وثانيها الإيمان بأنّ التّعليم ينبغي أنْ يكون تجربة عمليّة تُعِدّ الطّلبة للحياة الدّيمقراطيّة، فالقيادة الدّوريّة تطبيق عمليّ للدّيمقراطيّة داخل الفصل، إذ يتعلّم الطّلبة من خلال الممارسة لا التّلقين، وثالثها رفض التّربية البنكيّة التي تعتبر الطّلبة مجرّد أوعية سلبيّة للمعرفة، فالقيادة الدّوريّة تعدّ نموذجاً تحرّرياً يُمكّن الطّلبة من المشاركة في صناعة القرار وتشكيل بيئتهم التّعليميّة، ورابعها التّأكيد على فكرة أنّ التّعلّم عمليّة اجتماعيّة تحدث من خلال التّفاعل، فيصبح الفصل مختبراً اجتماعياً يبني الطّلبة معارفهم ومهاراتهم من خلال ممارسة أدوار حقيقيّة ذات معنى.

وقد كانت هناك بعض الدّول الذين طبّقوا هذه الفكرة الرّياديّة، ففي اليابان تمّ تطبيق نظام "توبان" الذي يقتضي قيام الطّلبة بالتّناوب على استلام أدوار كتنظيف الفصل أو تنظيم الأنشطة، ممّا يعزّز المسؤوليّة ويقلّل الغياب، وفي فنلندا استخدمت فكرة "القائد اليوميّ" في بعض المدارس الابتدائيّة لتعزيز الاستقلاليّة والتّفاعل الاجتماعيّ.

إنّ تطبيق مبادرة كهذه المبادرة، وما على شاكلتها من مبادرات أخرى، يحمل في نتاجاته آثاراًإيجابيّة من الممكن تلمّسها على الطّلبة بوضوح، ومنها:

- المساهمة في تحوّل ذات الطّالب البسيطة لتصبح ذاتاً بسمات قياديّة.
- توسيع أفق إمكانيّات الطّالب الشّخصيّة وإعادة تشكيل هويته التّعليميّة.
- نقل الطّالب من هامش التّعلّم ليصبح مركزه، ومن موقع المتلقّي السّلبيّ إلى موقع الفاعل المؤثّر.
- العمل على تنمية الوعي لدي الطّلبة وتعزيز مهارة التّفكير في التّفكير، إذ إنّ الطّلبة لدى تأمّلهم في تجاربهم القياديّة سينمو لديهم وعي عميق بعمليّات التّعلّم والتّعليم، فيبدأ كلّ منهم في فهم التّحدّيات التي يواجهها المعلّمون من وجهة نظرهم الخاصّة بتجربتهم القياديّة.
- المساهمة في بناء الشّخصيّة القياديّة المتكاملة المتوازنة، التي تجمع بين مهارات القيادة والقدرة على أداء الأدوار المختلفة، فالطّالب الذي يختبر القيادة ثم يعود لدور المرؤوس يطوّر فهماً أعمق للمسؤوليّة، ويتعلّم كيف يكون قائداً فعّالاً ومرؤوساً إيجابياًّ في الوقت نفسه.
- تنمية المهارات الاجتماعيّة والحياتيّة، من مثل المهارات التّنظيميّة، ومهارات التّواصل، ومهارات حلّ النّزاعات والذّكاء العاطفيّ.
- العمل على تعزيز الانتماء والمسؤوليّة، إذ إنّ الطّلبة عندما يتحمّلون مسؤوليّة إدارة فصلهم، يزداد شعورهم بالانتماء للمجتمع المدرسيّ ويزداد التزامهم بالحضور الدّائم، والمشاركة في اتّخاذ القرارات، وزيادة الالتزام بالقواعد الصّفيّة والمساهمة في صناعتها لتنفيذها لا الخضوع لها.
- المساهمة في تقليل التّنمّر والسّلوكيّات السّلبيّة، إذ إنّ تناوب الطّلبة على دور القيادة، سيجعل من الصّعوبة بمكان أنْ يستقوي أيّ طالب على آخرين، فتوزيع السّلطة يعزّز ثقافة الاحترام المتبادل.
- اكتشاف القدرات الكامنة التي لا يدركها أصحابها، إذ إنّهم سيدركون قدراتهم القياديّة حتّى تتاح لهم فرصة تجربتها.

ورغم هذه الإيجابيّات إلاّ أنّ هنالك تحدّيّات قد تنتج عن تطبيق المبادرة بصورة خاطئة أو دون نظام ممنهج، ومنها؛ صعوبة الموازنة بين منح الطّلبة سلطة حقيقيّة وبين الحفاظ على إطار تربويّ منظّم، وتصاعد التوتّر بين تمكين الطّلبة وبين احتفاظ المعلّم بدوره التّوجيهيّ، والتّفاوت في القدرات القياديّة، إذ إنّ الطّلبة يختلفون في مستوى مهاراتهم القياديّة وثقتهم في ذواتهم، فضلاً عن إحساس البعض بصعوبة كبيرة في ممارسة دورهم القياديّ ممّا قد يسبّب لهم توتّراً نفسياًّ خاصةً لدى الطّلبة الخجولين أو ذوي الصّعوبات الاجتماعيّة، إلى جانب حدوث عدم جديّة أو إساءة استخدام السّلطة، فقد يتعامل بعض الطّلبة مع الدّور بصفته لعبة أو فرصة للتّباهي، بينما قد يستغل آخرون السّلطة بشكل سلبيّ للانتقام من زملاء أو لفرض سيطرة غير مناسبة، ممّا يتطلّب إشرافاً دقيقاً من المعلّم وتوجيهاً مستمراًّ، وتقويض سلطة المعلّم وإضعاف موقفه، واهتزاز صورته كمرجعيّة للسّلطة في الفصل، ممّا قد يصعّب استعادة التّوازن إذا شعر الطّلبة أنّ بإمكانهم تجاوز توجيهات المعلّم، وتباطؤ سير المناهج وضياع الوقت، نظراً لضرورة تخصيص وقت للتّدريب والمتابعة والتّقييم، وهو ما قد يأتي على حساب تغطية المنهج الدّراسيّ، وناهيك عن تأثّر العلاقات بين الطّلبة، خاصّة عندما يضطرّ طالب إلى محاسبة أصدقائه أو الإبلاغ عن مخالفاتهم.

وإنْ أردنا النأي بهذه المبادرة الرّياديّة عن التّحدّيات والفجوات السّابقة فإنّه قد وجب التأسيس لها من خلال دمج القيم الإنسانيّة ومهارات القيادة كمحور أساسيّ في إستراتيجيّات مكافحة الغياب المدرسيّ، إذ يُعدّ غرس هذه القيم في قائد الفصل بوابّة فعّالة للتأثير الإيجابي في سلوك الطّلبة، فعندما يتبنى الطّالب القائد قيماً كالمسؤوليّة والالتزام والمبادرة، فإنّه يصبح نموذجاً يُحتذى به بين أقرانه، ممّا يخلق ثقافة جماعيّة تستهجن الغياب وتعزّز الانتظام.

كما أنّ نجاح هذه المبادرة في تجاوز الصّعوبات التي قد تظهر يتطلّب تضافر جهود منظومة متكاملة من المسؤوليّات المتشابكة، إذ لا يمكن لها ولغيرها من مبادرات أنْ تؤتي أُكلها إذا عملت بمعزل عن الأسرة والمعلّم والبيئة التّعليميّة ككلّ، فهذه المنظومة تحتاج نهجاً منضبطاً يجمع عناصر المنظومة بأكملها بشكل متكامل ومتوازن، للعمل على إنجاح هذه المبادرة من خلال ما يلي:

- تهيئة البيئة الصفية قبل تطبيق المبادرة، وذلك ببناء بيئة صفية إيجابيّة تقوم على الثقة والاحترام المتبادل، إذ يمكن استخدام أنشطة لبناء الفريق، وعقد لقاءات صباحيّة لتعزيز الترابط بين الطّلبة.
- تأسيس نفسيّ يعمل على تنمية المسؤوليّة الذّاتيّة لدى الطّالب تجاه ذاته أولّاً، وتجاه تعليمه ثانياً، من خلال غرس كينونة المسؤوليّة الذّاتيّة استناداً للآية القرآنيّة، في قوله تعالى:﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾(الأنعام:104)، إذ إنّ هذه الآية تحمل مبدأين أساسيّين في الإسلام هما؛ المسؤوليّة الفرديّة والمنفعة الذاتيّة، وهما مبدآن من شأنهما صياغة ثقافة التزام وانضباط لدى الطّلبة بصورته الصحيحة، فهما يعملان على تعزيز الوعي بالذّات، والتّذكير بأنّ الغياب يَضرُّ الطّالب أولاً، وهو خسارة شخصيّة له، لأنّه يحرم نفسه من فرص التّعلُّم واكتساب المهارات التي تبني مستقبله، وتحقيق ذاته وتحريرها من الجهل وتعزيز مكانته في المجتمع، مع غرس فكرة أنّ الالتزام بالدّراسة ليس واجباً اجتماعياً، بل هو استجابة لأمر اللّه بالسّعي نحو المعرفة.
- التزام المعلم بخلق بيئة تعليميّة جاذبة، وجعل المدرسة مكاناً يشعر فيه الطّالب بالأمان والتفاعل الإيجابيّ، ممّا يعزّز اقتناعه بأنّ الحضور مفيد له.
- قيام إدارة المدرسة بتطبيق سياسات واضحة تجمع بين التّحفيز الإيجابيّ والآليّات العقابيّة المناسبة، وفتح حوارات تربوية مع الطّلبة لتعزيز دوافع الالتزام الدّاخليّة لديهم.
- إشراك مجالس أولياء الأمور في برامج التوعيّة، والنّظر إليهم كركن أساسيّ في هذه المنظومة، نظراً لما يشكّله الوعي الأسريّ بأهميّة الانتظام المدرسيّ وتداعيات الغياب على المستقبل التّعليميّ والمهنيّ للطالب من دافع قويّ نحو تعزيز ثقافة الحضور المنتظم، ممّا يساهم بإيجاد التّناغم المطلوب بين الرّسائل التّربويّة التي يتلقّاها الطّالب في المدرسة والمنزل على حدّ سواء.

- معالجة الأسباب الجذريّة للغياب، وتقديم الدّعم النّفسيّ والاجتماعيّ، من منطلق تحقيق مبدأ "اختيارك لحلّ المشكلة هو استثمار في نفسك".
- استخدام أساليب إبداعيّة ومسابقات الحضور والتفوُّق، وتقديم مكافأة للطّلبة المنتظمين بحضورهم، مع تفسير الجائزة كـ"ثمرة اختيارهم الصحيح".
- تنظيم جلسات عصف ذهنيّ مع الطّلبة لصياغة ميثاق صفيّ يحدّد القواعد والقيم والتوقّعات.
- تصميم نظام القيادة المتناوبة وتحديد المسؤوليّات بدقّة، وتعريف مهامّ قائد الفصل بوضوح، وقد تشمل هذه المهامّ متابعة الحضور والغياب، والإشراف على توزيع الموادّ التّعليميّة، ومساعدة المعلّم في إدارة المناقشات، والإبلاغ عن مشكلات الانضباط، وقيادة بعض الأنشطة الصّفيّة، وتمثيل الفصل في اجتماعات المدرسة.
- تصميم نظام التّناوب بشكل مرن، فيكون للمدرسة الحريّة في اختيار آلية وكيفيّة تطبيقها.
- إجراء المعلم تعديلات مستمرة على المبادرة بناءً على المعطيات المستخلصة من التقييم، وقد يشمل ذلك تعديل نظام التناوب، وإضافة أو تغيير المسؤوليّات، وتقديم تدريب إضافي في مجالات معينة، وتعديل آليّات الدّعم والمساندة.
- التّكييف للمبادرة بما يتناسب والفئات العمرية المختلفة في المرحلة التّعليميّة .

وختام القول،

إنّ مبادرة "قائد الفصل الدوري" ليست مجرّد نشاط مدرسيّ، بل هي خطوة حيويّة نحو بناء مجتمع يتمتّع بقادة وأعين قادرين على مواجهة التّحديات المستقبليّة، كما أنّها تحمل بعدَ فلسفة تربوية متكاملة تتجاوز كونها مجرد تقنيّة تعليميّة، إذ تجسّد "ديمقراطيّة التعلّم" التي تجعل المعرفة ملكية مشتركة والقيادة ممارسة متداولة بين الطّلبة، وهذا النّموذج التربويّ يتطلب توازناً دقيقاً بين منح الطلبة فرصاً حقيقيّة للقيادة، وبين التّوجيه المناسب من المعلم، لتحويل الفصل الدراسيّ من مكان لنقل المعرفة إلى مختبر اجتماعيّ لصناعة المستقبل وتنمية مهارات التفكير النّقديّ والتعاون.

وتعدّ هذه المبادرة واحدة من الكثير من المبادرات التي يمكن تبنّيها لمواجهة تحدّيات ظاهرة الغياب المدرسيّ بشقيّها الظّاهر (الغياب الجسدي) والخفيّ (الحضور الجسدي مع الغياب الذهني)، إلاّ أنّه يتوجّب مهما كان نوع المبادرة المراد تطبيقها، أنْ تعمل المدرسة والأهل معاً لتحسين طرائق التدريس وبناء مناخ تعليميّ أكثر ديمقراطيّة وإيجابيّة، وهذا يتطلّب تطوير برامج دراسيّة تتناسب وقدرات الطّلبة، وتنمية مهارات حلّ المشكلات والحوار لديهم، بهدف تحويل المدرسة إلى مكان آمن ومحفّز، قادر على بناء جيل واعٍ، ورفد المجتمع بقيادات أكاديميّة واجتماعيّة فعّالة في المجتمع.

ولنتذكّر بأنّ مبادرة قيادة الفصل الفعّالة ليست مجرد ضبط للنّظام وحسب، بل هي مزيج من الإبداع والتّعاطف والتكنولوجيا، فمن خلال تطبيق هذه المبادرة يمكن تحويل الفصل إلى بيئة تعليميّة ديناميكيّة تتصدّى لظاهرة الغياب المدرسيّ، وتسهم في رفع جودة التّعليم.